الفصل الثالث
نقد نظرية الوسطية في الأخلاق عند علماء المسلمين مع المقارنة بالمنهج الأرسطي

كتب الأستاذ علال الفاسي[1] رحمه الله تعالى في نقد نظرية الوسطيَّة في فلسفة الأخلاق، كما نقدها الأستاذ الأديب عباس العقاد[2]أيضاً في ذلك، كما كتب الدكتور أحمد الحوفي[3] مقالاً ضافياً في ذلك، وفي كلامه سقطات سوف نعرض لها في حينه إن شاء الله تعالى، وسوف نعرض أولاً مذاهب علماء الأخلاق المسلمين مقارناً بالمذهب الأرسطي ثم نعلق على هذا النقد كما سيأتي:.

١- الوسطيَّة عند أرسطو[4] (٣٢٢- ٣٨٤ ق.م)

قال أرسطو:" إنَّ الوسط بالنسبة إلى شيء ما: هو النقطة التي على بعدين متساويين من كلا الطرفين، والتي هي واحدة بعينها في كل الأحوال أما بالإضافة إلى الإنسان، فالوسط هو الذي لا يعاب، لا بالإفراط ولا بالتفريط وكل إنسان عالم وعاقل يجهد نفسه في اجتناب الإفراط من كل نوع، سواء أكان بالأكثر أو بالأقل، ولا يطلب إلا الوسط القيم، ويفضله على الطرفين. ولكن هذا الوسط ليس وسط الشيء عينه، بل

---

(١) " مقاصد الشريعة ومكارمها" (ص/٤٥-٤٦).

(٢) " حقائق الإسلام وأباطيل خصومه" (ص/٢٨٥-٢٨٦).

(٣) " مجلة الوعي الإسلامي " (ص/٣٩-٤٥) عدد "٣٩" السنة الرابعة. عدد غرة ربيع أول سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

(٤) علم الأخلاق (١/٢٤٥) أرسطو.

الوسط بالنسبة إلينا، وأنا أعني بالكلام هنا الفضيلة الأخلاقية، لأنها هي التي تختص بإنفعالات الإنسان وأفعاله.

فالفضيلة نوع وسط، ما دام الوسط هو الغرض الذي تطلبه بلا إنقطاع، ثمَّ ضرب أرسطو أمثلة للحد الوسط، فقال (١): إن الإعتدال أو العفة وسط بين الفجور والخمود، والسخاء وسط بين الإسراف والبخل، والكبر وسط بين الوقاحة والضعة، والحلم وسط بين الفتور والشراسة، والصدق وسط بين الإدعاء والمبالغة، وبين التعمية، والبشاشة وسط بين الفظاظة والسخرية، والصداقة وسط بين الملق والشراسة.

قال أحمد الحوفي (٢):

ولقد أعجب بهذا المذهب كثير من العلماء، وجاراه بعض فلاسفة المسلمين، ولعل مرد هذا إلى مكانة أرسطو، وإلى أن مذهبه هذا يدعو إلى الإعتدال، والإعتدال خُلَّة يرضاها الإسلام، ويحمدها الناس، لأنَّه يدل على الإتزان، وعلى سلامة التقدير، وصواب التدبير، والبعد عن الشطط.

---

(١) علم الأخلاق (١/٢٥٠-٢٧٥).

(٢) "مجلة الوعي الإسلامي " (ص/٤٠) العدد"٣٩" سنة ١٣٨٨هـ.

٢- الوسطيَّة عند الغزالي(١)

(٤٥٠/٥٠٥هـ) (١٠٥٨/١١١١م)

ذهب الغزالي، إلى أن أمهات الإخلاق وأصولها أربعة (٢):.

الحكمة . الشجاعة . العفة . العدل.

وقال: إنَّ المراد

بالحكمة: حالة للنفس تدرك بها الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الإختيارية.

وأما العدل: فهو حالة للنفس وقوة بها، تسوس الغضب والشهوة، وتحملها على مقتضى الحكمة.

وأما الشجاعة: فهي إنقياد قوة الغضب للعقل في إقدامها وفي إحجامها.

وأما العفَّة: فهي تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

فمن إعتدال هذه الأصول الأربعة ،

---

(١) أبو حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد الغزالي، الملقب بحجة الإسلام، ولد بقرية (غزالة) وإليها نسب. من قري طوس بخراسان سنة (٤٥٠هـ /١٠٥٨م) لأب كان يتخذ دكاناً لنفسه يغزل فيه الصوف ويبيعه، وبها تعلم الكتابة والخط، ثم مضي إلي نيسابور، وتتلمذ هناك علي إمام الحرمين " الجويني"، فلقيت الأنظار إليه بذكائه وفطنته وحاضر بديهته. لقيه الوزير نظام الملك فأعجب به، وحل من نفسه محلاً عظيماً وولاه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد سنة (٤٨٤هـ)، طاف الغزالي بكثير من البلاد الإسلامية، فحج وإنصرف إلي دمشق وبقي بها مدة، وفيها ألف بعض كتبه ومنها "إحياء علوم الدين" كما زار القدس والإسكندرية. والغزالي: شخصية متعددة المواهب فهو إمام متكلم، وفليسوف، وعالم أخلاقي، وفقيه مجتهد، ومتصوف زاهد وتوفي الغزالي سنة (٥٠٥هـ/١١١١م) وله مائة كتاب في العلوم العقلية والدينية أهمها: إحياء علوم الدين، تهافت الفلاسفة، الرد علي الباطنية.

(٢) إحياء علوم الدين (٤٦/٢).

فمن الحكمة :تصدر الأخلاق الجميلة كلها، إذا من إعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير، وجودة الذهن، وثقابة الرأي، وغصابة الظن، والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس، ومن إفراطها تصدر الجريرة [١] والمكر والدهاء، ومن تفريطها يصدر البله [٢] والحمق والجنون

وأما الشجاعة: فيصدر منها الكرم والنجدة، والشهامة والإحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها، وإفراطها وهو التهور يصدر منه الصلف والبذخ والتكبر والعجب، وتفريطها تصدر منه المهانه والذل والجزع والخسه وصغر النفس والإنقباض عن تناول الحق الواجب.

وأما العفَّة: فيصدر منها السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والظرف وقلة الطمع، وميلها إلى الإفراط أو التفريط يحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقصير، والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء، وإستحقار الفقراء وغيرها

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربع وهي:.

الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل والباقي فروعها، ولم يبلغ كمال الإعتدال فيها إلا رسول الله ﷺ.

وقال الغزالي[٣] " إنَّ الإمساك حيث يجب البذل بخل، وأن البذل حيث يجب الإمساك تبذير، وبينهما وسط هو المحمود، وهو الجود او السخاء أو الكرم، وإذا لم يؤمر رسول الله ﷺ إلا به.

وقد قال تعالى:

---

(١) الخبث والخداع.

(٢) الغفلة.

(٣) إحياء علوم الدين (٣/٢٢٥).

" وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ " (الإسراء /٢٩).

وقال تعالى " وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا " (الفرقان /٦٧).

فالجود وسط بين الإسراف والإقتار وبين البسط والقبض.

وردد الفكرة نفسها في كتاب آخر [١] فقال:.

إنَّ الحكمة : فضيلة القوة العقلية، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية، والعفة فضيلة القوة الشهوانية، والعدالة: وقوع هذه القوي على الترتيب الواجب.

وذكر أنَّ الحكمة وسط بين رذيلتين هما الخب [٢] والبله، وهما طرفا إفراطها وتفريطها،

وأنَّ الشجاعة وسط بين التهور والجبن،

والعفة وسط بين الشره[٣] والخمود. ثمَّ عقب على هذا بأن

العدل لا تكتنفه رذيلتان، بل إن رذيلة الجور هي المقابلة له، وهكذا جعل يطبق مذهب الوسطيَّة، فالكرم وسط بين البذخ والشح،

والنجدة وسط بين الجارة والجبن،

وكبر النفس وسط بين التكبر وصغر النفس،

والحلم وسط بين الإستشاطة والبلادة

والوقار وسط بين الكبر والتواضع [٤].

---

(١) ميزان العمل (٦٧-٧٤) للغزالي.

(٢) الخداع.

(٣) إفراط الشهوة.

(٤) ميزان العمل (ص/٧٥).

٣- الوسطيَّة عند ابن مسكويه[١](٤٢١.٣٢٠هـ)=(١٠٣٠.٩٣٢م)

كذلك رأى ابن مسكويه أنَّ الفضائل أوساط بين أطراف، وتلك الأطراف هي الرذائل، ثمَّ قال: إنه من الصعب وجود الوسط، وأن التمسك به بعد وجوده أصعب، ولذلك قالت الحكماء: إصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها، ولزوم الصواب بعد ذلك حتي لا يخطئها أعسر وأصعب غير أنَّه مع هذا جعل يطبق النظرية كما طبقها سواه من علماء الأخلاق المسلمين.

نقد علال الفاسي لنظرية الوسطية في الاخلاق

قال علَّال الفاسي [٢] رحمه الله (١٣٢٦-١٣٩٤هـ /١٩٠٨-١٩٧٤م):.

وإعتبار الخلق أو الفضيلة وسطاً بين طرفي الإفراط والتفريط، ليس قاعدة إسلاميَّة مسلمة، وإنما هي نوع من التحليل اليوناني لفلسفة الأخلاق إقتبسه بعض الأخلاقيين الإسلاميين؛ لأنَّه أقرب إلى ما يوضح فكرة الآداب العامة عند المسلمين، وليس في

---

(١) تهذيب الاخلاق (ص/٢٠) لإبن مسكويه، واسمه: أبو علي أحمد بن مُحَمَّد بن يعقوب المعروف "بابن مسكويه"(٣٢٠-٤٢١)=(٩٣٢-١٠٣٠م) وقد طبع كتابه " تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق " في القسطنطينية عام (١٢٩٨-١٢٩٩هـ)، وفي القاهرة عام (١٣٥٧م) و هو فيلسوف ومؤرخ وشاعر فارسي بارز من أبناء مدينة الري في إيران الحالية. كان ناشطاً في الميدان السياسي زمن الدولة البويهية، حيث كان موظفاً رسمياً في تلك الدولة وعمل في بغداد وأصفهان ومدينة الري. لمع نجمه في الفلسفة حتى لقبه البعض بالمعلم الثالث، ويعتبر ابن مسكويه أول عالم مسلم بارز درس الأخلاق الفلسفية من وجهة نظر علمية وذلك في كتابه تهذيب الأخلاق والذي ركز فيه على الأخلاق والمعاملات وتنقية شخصية الإنسان

(٢) " مقاصد الشريعة ومكارمها " للأستاذ علال الفاسي (ص/٤٥-٤٦).

الإسلام ما يجعل التجاوز والسمو في الخلق مذموماً؛ فالمؤمنون درجات، كل يعمل على أن يرتقي في معارج السالكين إلي أن يصل إلى أعلى درجات اليقين المحبة، وهم يقولون: إنَّ الولاية لله لا تحد مراتبها، وكل يعمل للوصول إلى أسمى منازلها دون أن ينال ذلك، والكمال لا نهاية له، وهل يعقل أن يقال لمن أنفق جميع ماله في سبيل الله إنَّه مبذر، أو إنه إرتكب مذموماً؟ أرأيت أبا بكر الصديق ﷺ وقد جاء بكل ماله ووضعه بين يدي رسول الله

ﷺ نفقة في سبيل الله، فدعا له النبي ﷺ وقال بارك الله لك في أهلك ومالك. فهل كان بذلك مسرفاً متجاوزاً للحد في الإنفاق؟ وإنَّما يقال ذلك في مجال الإنفاق الشخصي، أما في مجال الخير والتسابق فإنه لا إسراف فيه ولا تبذير، بينما لو أنفق درهماً واحداً في وجه غير مشروع لكان ذلك يبذيرا مذموماً منهياً عنه.وكذلك خلق الشجاعة، أليست هي بذل النفس في سبيل الخير،أو الإقدام والجرأة؟ فهل يقال إن الشجاعة جزء من الجبن أو التهور حتي تكون وسطاً أو طرفاً؟ وقد علمنا أنَّ الوسط هو بعض ما يضاف إليه؛ فإن وسط الدار جزء منها .كما تقدم . فلو كانت الشجاعة وسطاً بين الجبن والتهور لكانت جزءاً من الجبن والتهور.ا.هـ.

نقد عباس محمود العقاد للنظريَّة

قال الأستاذ عبَّاس محمود العقاد (١٣٠٦-١٣٨٣هـ /١٨٩٩-١٩٦٤م):.

ومذهب الفلسفة اليونانية ينتهي بنا إلى مقياس للأخلاق شبيه بمقاييس الهندسة والحساب؛ بعيداً عن تقدير العوامل النفسية والقيم الروحية؛ في الأخلاق العليا علي التخصيص، وقد تصدق هذه الفلسفة إذا كان المطلوب من الإنسان أن يختار بين رذيلتين محققتين، فإنَّه في هذه الحالة يحسن الإختيار بين طرفين متقابلين كلاهما مذموم ومتروك، إلا أننا لا نقول مع ذلك: إنَّ الكرم نقص في رذيلة البخل أو نقص في رذيلة

السرف، ولا نقول مع ذلك: إنَّ الكرم إذا زاد أصبح مسرفاً، وإنَّ السرف إذا نقص أصبح كرماً بل تكون الزيادة في الكرم كرماً كبيراً، والنقص في السرف سرفاً قليلاً ولا يكون الكرم أبداً درجة من درجات السرف، ولا البخل درجة من درجات الكرم، بل هي أخلاق متباينة في القيمة، يتقارب الطرفان فيها أحدهما من الآخر؛ ولا يتقارب الطرف من الوسط كما يظهر من قياس الهندسة أو قياس الحساب. ولقد رأينا في مباحث العلل النفسيَّة التي كشفها العلم الحديث أنَّ الشذوذ يقرب بين المسرفين والبخلاء في أعراض متشابهة... ولن يشذ الإنسان عن الإعتدال في الطبع إذا هو آثر أن يذهب في كل فضيلة إلى نهايتها القصوي؛ فماذا يعاب في جمال الوجوه مثلاً، إذا إنتهى إلى مثل تلك الغاية في معهود البصائر؟

إنَّ كلمة من كلمات اللغة العربية العامرة بمدلولاتها النفسية والفكريَّة لتهدينا إلى قسطاس الحمد في كل حسنة مأثورة بكلمة (ناهيك)؛ حين نقول: ناهيك من رجل، أو ناهيك من عمل، أو ناهيك من خلق! هو قسطاس الثناء فيما تنشده النفوس الإنسانية من كل فضل منشود[1].ا.هـ.

(١) " حقائق الإسلام وأباطيل خصومه"، عباس محمود العقاد (ص/٢٨٥-٢٨٦).

نقد الدكتور أحمد الحوفي رحمه الله تعالى

(١٣-١٤هـ =١٩١٠م-١٩٨٣م)

قال الدكتور أحمد الحوفي [١] رحمه الله تعالى:. لكن هذه النظرية . على قدمها وذيوعها . ليست سليمة من القصور والعيوب.

١- ولقد يتضح قصورها إذا ما طبقناها على كل فضيلة من الفضائل، فالشجاعة مثلاً ليست وسطاً بين التهور والجبن، وإن كان التهور رذيلة والجبن رزيلة، بل الشجاعة فضيلة حيثما كانت وكيفما كانت، مادامت سنداً للحق، ودفاعاً عن العرض والمال والحياة، وحماية الضعفاء من جبروت الطغاة وعدوان الأقوياء.

ولن تكون الشجاعة في حال من أحوالها مذمومة، ولن تكون في مجاوزتها الحد المألوف رذيلة توصف بالتهور كما يقول دعاة الوسطيَّة، بل التهور رذيلة؛ لأنه حمق وخرق وخطل في التدبير وعجز عن ضبط النفس وغفلة عن الحزم وعن تدبر العواقب.

---

(١) أحمد محمَّد الحوفى هو من أبرز أساتذة الإعلام فى مجال الدراسات الأدبية واللغوية الذين شاركوا مشاركة فعالة فى توطيد دعائم الصرح الثقافى العربى الإسلامى فى ربط الأمة العربية بعضها ببعض بمؤلفاته ومقالاته ومحاضراته كما أن كثيراً من الهيئات الأدبية أشركته فى عضويتها و لجانها ومؤتمراتها ومحافلها، كما حرصت جامعات مصر والأمة العربية على الانتفاع بعلمه وخبرته فاختارته أستاذاً معاراً وأستاذاً زائراً ومشرفا على عشرات من رسائل الماجستير والدكتوراه كذلك كتب في المجلات الأدبية المتنوعة فى مصر والعالم العربى فى موضوعات شتى واستعانت به الإذاعة والتليفزيون فى كثير من البرامج الأدبية والثقافية.

والكلام منشور في " مجلة الوعي الإسلامي" ص (٤٢) مرجع سابق.

ليست الشجاعة دائماً ألا يخاف المقدم، فإنها كما تكون في الإقدام تكون في الإحجام، وكما تكون في الإستهانة بالمخاوف تكون في توقي بعض المخاوف، وفي تقديرها، وفي التغلب عليها، لا للإستكانة لها.

وهذه الشجاعة درجات، أولها فضيلة، وعلياها فضيلة، بل أفضل الفضيلة، وهي الفداء والبطولة والإستشهاد، وكذلك الكرم تتفاوت درجاته من جود بالقليل إلى جود بالكثير إلي بذل للأكثر إلى سخاء بالمال كله، ولكل حالة من هذه الحالات بواعثها وأهدافها السامية.

فقد يجود الشخص في سبيل الخير بالعشرة أو بالمئة وتسمي كريماً، لأنَّ طاقته لا تحتمل أكثر من هذا، أو لأنَّ الصالح العام لا يوجب عليه فوق هذا. وقد يجود شخص بالآلاف أو بمئات الآلاف، ولا يُسمَّى مسرفاً، لأن ثراءه يتسع لهذا السخاء وتقتضيه.

على أنَّ هذا الشخص أو ذاك يوصف بالإسراف إذا بذل المال القليل في عبث لا يمت إلى الخير بسبب، أو أنفق أقل القليل في معصية الناس أو إضرار الناس، وهل يستطيع الناس أن يصفوا بالإسراف غنياً لا وارث له يخرج عن ماله كله للفقراء، أو يشيد به مدرسة أو مسجداً أو مصنعاً، أو يشتري به سلاحاً للدفاع عن الوطن؟.

إن هذا الغني لا يوصف إلا أنَّه بلغ ذروة الأريحية والسخاء. وهل يستطيع أحد أن يصف بالتهور البطل المقدام الذي يستهين بالحياة ليفتدي دينه أو وطنه أو عرضه؟.

وهذا الذي نقوله في نقد الوسطية في الفضائل كلها، نقوله مثله في نقدها في الرذائل كلها، كالجبن والبخل والفجور وغيرها.

تحديد الوسط صعب

٢- على أن نقطة بين الرذيلتين لا يمكن تحديدها، فكيف تعرف؟ ومن الذي يحكم بأن هذه النقطة هي الإعتدال دون غيرها؟ وهل الوسط بين رذيلتين محدود، أو ممكن التحديد، مثل منتصف طريق معروف الطول؟ وأين ذلك المقياس الذي يعين المنتصف الذي عناه أرسطو وسواه؟.

وإنَّه ليسترعي النظر حيرة أرسطو في تعيين الوسط، فقد ذكر:. أنَّ إدراك الوسط في كل شيء أمر صعب جداً، كما أن إستكشاف مركز دائرة لا يتيسر لجميع الناس، ولهذا كان على من يريد إصابة ذلك الوسط أن يبتعد عن الرذيلة التي هي أشد ما تكون تضاداً مع هذا الوسط، لأن هذين الطرفين أحدهما أكبر إثماً والآخر أقل(١).

وقد سبق قول ابن مسكويه أنَّه من الصعب جداً وجود الوسط، وأن إصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها.

٣- ونستطيع أن نفهم كلام أرسطو نفسه أن الوسط متنقل غير ثابت ولا محدد، فهو تارة يقول:.

"أن المراد الوسط بالنسبة لنا (٢)" وتارة يقول:. " أنَّ بعض الأطراف تشبه الوسط، فالتهور به بعض شبه بالشجاعة، والسرف به شبه بالسخاء، ولكن المفارقة الكبري تتبين بين بعض الأطراف وبعض (٣)".

٤- فإذا ما راعينا أنَّ الفضيلة ليست دائماً متساوية البعد عن الطرفين تبين لنا أن الوسط بين رذيلتين ليس هو الفضيلة، لأنَّ الشجاعة أبعد عن الجبن من بعدها عن

---

(١) " علم الاخلاق " (٢٦٢/١) لأرسطو.

(٢) " علم الأخلاق " (٢٤٥/١).

(٣) " علم الأخلاق " (٢٥٩/١).

التهور، والكرم أقرب إلى جانب الإسراف منه إلى جانب البخل، والعفة أدني إلي الخمود منها إلى الفجور وهكذا.

٥- على أن بعض الفضائل لا يتحقق فيها أنها أوساط بين رذائل، فالصدق ليس وسطاً بين الكذب وشيء آخر، إنما الصدق صدق فحسب، والكذب كذب فحسب، والعدل ليس وسطاً بين الجور وشيء آخر، بل العدل عدل خالص والجور جور خالص، والعفة ليست وسطاً بين الفجور والخمود، بل العفة هي العفة.

وقد ذكر أرسطو [١] " أن الوسط القويم بين طمع غال في المجد وقعود تام عن المجد ليس له اسم خالص، وذكر أن الصدق ليس وسطاً بين رذيلتين [٢]، وحار في التواضع فلم يعده فضيلة[٣]، ولعلنا ما زلنا نذكر أن الغزالي . وهو من دعاة نظرية الوسط . جهر بأن العدل لا تكتنفه رذيلتان، وقال:

" إن الرذيلة المقابلة للعدل هي الجور ".

---

(١)" علم الاخلاق " (٢ /٣٢).

(٢) " علم الأخلاق " (٤٣/٢).

(٣) " علم الأخلاق " (٢٥٠/١).

الوسطيَّة تعرف بالشرع

قال الحوفي [1] إن تحديد الوسط صعب ولا يمكن الإتفاق عليه. ا.هـ.

قلت: هذا كلام غير دقيق، ولكي نعرف الوسط " لا نخضع للأهواء أو التقديرات[2] الذاتية وإنما تعرف الوسطيَّة بالشرع، وقد تعرف بالعوائد وما يشهد به معظم العقلاء، وإذا كنا قد ألمحنا إلى معاني الوسطيَّة ووجوه استعمالها، فإن ذلك يشير إلى أن الوسطيَّة هي كون الإنسان في دائرة المشروع، وهي الخير والعدل، فإذا وقف المرء دون هذه الدائرة ولم يعمل فيها كان مقصراً مفرطاً، وإذا تجاوزها كان مفرطاً مغالياً متطرفاً إلى الجهة الأخرى المذمومة، فليس معنى الوسطيَّة ـ إذن ـ أن يكون الإنسان دائماً في نقطة الوسط المادي بين جهتين أو صفتين، فقد يتعدى هذه النقطة ليصل إلى ما هو أعلى منها دون أن يخرجه ذلك عن دائرة الوسطيَّة، وليس هناك ما يمنع شرعاً من تجاوز العدل إلى الفضل، بل هنا ما يحمل أصحاب النفوس العالية والهمم القوية على الإرتقاء دائماً والسمو والتطلع نحو الآفاق العالية الكبيرة التي لا يستطيعها المهازيل أو ضعاف النفوس، ويحملهم ايضاً على الإستكثار من الأعمال الصالحة والتمسك بأحكام الكتاب والسنة " ا.هـ.

---

(١) " الوعي الإسلامي " مرجع سابق.

(٢) " مجلة البيان " عدد"١٦٧". مقال د. عثمان جمعة ضميرية (وسطية الإسلام والأمة المسلمة) (ص/١٤).

مناقشة الحوفي في نقده لنظرية الوسطيَّة

تعسف الدكتور الحوفي في نقده لنظرية الوسطية في الاخلاق وجعل الآيات القرآنية التي تحدثت عن الوسطية محلاً للشبهات بتفسيرات ركيكة جانبه فيها الصواب وكما وضحنا أن الوسطيَّة في الأخلاق لا تقاس بالمعادلات الرياضيَّة كما في التحليل اليوناني، ولكن الوسطيَّة والتوازن إنما تُعرف بالشرع فهو يدور في دائرة الشرع والعدل وإن كان أحمد الحوفي ـ رحمه الله ـ حاول جاهداً أن يتمادى في نقده بما ينسف أساس النهج ذاته.

قال رحمه الله تعالى[1] تحت عنوان " شبهة وردها ":. وقد يتبادر إلى الخاطر أنَّ في بعض الآيات القرآنية مدحاً للوسط بذلك المعني ودعوة إليه:. فالكرم مثلاً وسط بين البخل والإسراف لقوله تعالى :

" وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا " (الإسراء /٢٩).

لكن هذا الفهم غير صحيح، لان الآية الكريمة مسبوقة بقوله تعالى " وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا " (الإسراء /٢٦-٢٩).

ومعنى هذا أنَّ الله سبحانه أمر عباده بصلة أقاربهم وبصلة المساكين وأبناء السبيل، بعد أن أمرهم في آية سابقة ببر آبائهم وأمهاتهم، ثمَّ نهاهم عن التبذير وهو الإنفاق في المعاصي، وفي غير الحق، ونهاهم عن التقتير وهو البخل بالمال في الخيرات والطاعات، وهذا المعنى الذي روي عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود ومجاهد،

(١) " مجلة الوعي الإسلامي " عدد "٣٩" السنة الرابعة سنة ١٣٨٨هـ = مايو ١٩٦٨م.

وقتادة وابن زيد. أما الإنفاق في الخير وفي الحق فقد قال فيه مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق ما كان تبذيراً، ولو أنفق مداً في باطل كان تبذيرا [١].

قال الحوفي:. " وروي عنه قوله " لو أنفقت مثل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله ما كان إسرافاً ولو أنفقت صاعاً في معصية الله كان إسرافاً " [٢].

إذن فقد نهى الله عن البخل في الحقوق التي أوجبها على الأغنياء في أموالهم، ونهى عن السفه في الإنفاق، لأنَّ السفيه بإتلافه لن يجد ما ينفقه على نفسه، فيما بعد، ولن يجد ما يعطيه إذا أراد العطاء، فيلوم نفسه ويلومه غيره على أنَّ بعض المفسرين ذهب إلى أن المراد بالبسط إنفاق المال في المعاصي، وفيما لا ينبغي إنفاق المال فيه [٣] .

والذي يصحُّ إستنباطه من هذا أن القرآن الكريم أمر بفضيلة هي الجود بالمال على المحتاجين من الأقرباء والمساكين وأبناء السبيل، وفي إعزاز الدين وحمايته والدفاع عنه، ونهى عن رذيلة هي: البخل وعن رذيلة أخرى هي الإسراف، قال تعالى " كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " (الانعام /١٤١).

فليس في الآيات ما يفهم منه أن الكرم وسط بين رذيلتين، بل الذي يفهم أن القرآن نهى عن رذيلتين هما البخل والإسراف، وبين هاتين الرذيلتين درجات من الكرم تختلف بإختلاف مقدرة المنفقين، فقد يكون إنفاق شخص معتدلاً وهو أقرب إلى البذل

---

(١) " تفسير الطبري " (٥٣/١٥).

(٢) " تفسير الطبري " (٢٣/١٩).

(٣) " تفسير الطبري " (٥٦/١٥)، وقد علق محرر المجلة علي كاتب هذه النقطة في أجلي بيان وبين فساد هذا التفسير فقال (ص/٤٤) يضعف هذا التفسير أن الله يقول " وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ " ومعني هذا ـ طبقاً لمفهوم المخالفة ـ أن يبسطها بعض البسط، وهذا يؤدي إلي جواز إنفاق شيء من المال في المعاصي ، وهو فاسد.ا.هـ.

الكثير، وربما يسخو الشخص بماله كله في نصرة الحق والخير وهو براء من التبذير، وعلى غرار هذا الفهم ينبغي تفسير قوله تعالى " وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً " (الفرقان /٦٧) ،لأن القوام هو الإستقامة والإعتدال.ا.هـ.

مناقشة قضيَّة الإنفاق في السنة النبويَّة

والجواب على ما سبق: قال الحوفي " على أن بعض المفسرين!! ذهب إلى أنَّ المراد بالبسط إنفاق المال في المعاصي وفيما يسخط الله تعالى وفيما لا ينبغي إنفاق المال فيه " ا.هـ.

وقد رد عليه محرر المجلة ووضح فساد وشذوذ هذا التفسير في أجلى بيان قال:. يضغف هذا التفسير أن الله يقول " وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ " ومعني هذا . طبقاً لمفهوم المخالفة . أن يبسطها بعض البسط، وهذا يؤدي إلى جواز إنفاق شيء من المال في المعاصي،وهو فاسد ا.هـ.

ولا بد أن نوضح بالتفصيل قضية التبذير أو الإسراف في الإنفاق ونوضح شرح الآية طبقاً للسنة النبوية وكما شرحها أهل العلم وأئمة الهدى ونبين تسرع المؤلف في نسف قضية الوسطيَّة مع إقراره في بداية المقال أن النظرية بها بعض القصور والعيوب.

قال تعالى " وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً " (الإسراء /٢٦-٢٧).

روي مسلم والبخاري عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال:." إنَّ الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعاً وهات، ووأد البنات وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال، وإضاعة المال "

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني [1] في الفتح في الكلام على إضاعة المال:. الأكثر حملوه على الإسراف في الإنفاق، وقيَّده بعضهم بالإنفاق في الحرام، والأقوى أنَّه ما أنفق في غير وجهه المأذون فيه شرعاً، سواء كانت دينية أو دنيوية، فمنع منه لأنَّ الله تعالى جعل المال قياماً لمصالح العباد، وفي تبذيرها تفويت تلك المصالح، وإما في حق مضيعها وإما في حق غيره، ويستثنى من ذلك كثرة إنفاقه في وجوه البر، لتحصيل ثواب الآخرة، ما لم يفوت حقاً أخروياً أهم منه.

والحاصل في كثرة الإنفاق ثلاثة أوجه:.

الأول:. إنفاقه في الوجوه المذمومة شرعاً، فلا شك في منعه.

والثاني:. إنفاقه في الوجوه المحمودة شرعاً، فلا شك في كونه مطلوباً بالشرط المذكور.

والثالث:. إنفاقه في المباحات بالأصالة؛ كملا ذ النفس، فهذا ينقسم غلي قسمين:.

أحدهما: . أن يكون على وجه يليق بحال المنفق وبقدر ماله، فهذا ليس بإسراف.

والآخر:. ما لا يليق به عرفاً وهو ينقسم إلى قسمين:.

أحدهما:. ما يكون لدفع مفسدة، إما ناجزة أو متوقعة؛ فهذا ليس بإسراف.

والثاني:. ما لا يكون في شيء من ذلك؛ فالجمهور على أنه إسراف وذهب بعض الشافعيَّة إلى أنه ليس بإسراف.

وملخص ما سبق كالآتي:

١.كثرة الإنفاق في الوجوه المذمومة شرعا ممنوعة شرعا

٢.كثرة الإنفاق في الوجوه المحمودة شرعا مطلوب بشرط عدم الإسراف.

٣.كثرة الإنفاق في المباحات وينقسم إلى:

أ. إذا كان يليق بحال المنفق وقدر ماله فهذا ليس بإسراف.

---

(١) " فتح الباري " (٤٠٨/١٠).

ب ـ ما لا يليق به عُرفا وينقسم إلى:

١. ما يكون لدفع مفسدة ناجزةأو متوقعة فهذا ليس بإسراف

٢. ما لا يكون في شئ من ذلك فالجمهور على أنه إسراف، وقال بعض الشافعية ليس بإسراف

بل إنَّ الفقهاء نهوا عن الإسراف في المباحات طبقاً لما قررته الشريعة وما جاء من نصوص الوحي الكريم حتى نهوا عن الإسراف في الكفن الذي يخرج به الإنسان من الدنيا فقد كان السلف يكرهون المغالاة في الكفن، ويروي في ذلك:" لا تغالوا في الكفن فإنه يسلب سريعاً " (١) وأوصى أبو بكر الصديق ﷺ أن يكفن في ثوبه القديم وقال: إن الحي أحق بالجديد من الميت، إنما هو للمهلة (٢).

فقوله تعالى " وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ "نهي عن الشح والبخل ،" وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ " نهي عن الإسراف والتبذير.

فيكون الواضح من مفهوم الآيتين والمتبادر إلى الذهن إلى أي عاقل هو الدعوة إلى الوسطيَّة في الإنفاق ولأن الكرم فضيلة فقد نهت الآية عن الشح والإسراف في المباحات رذيلة فقد نهى عنه أيضاً، والحقيقة أن الدكتور أحمد الحوفي رحمه الله تعالى حاول جاهداً أن يلوي عنق النص وأتى بتفسير ركيك وضعيف ليدلل على نفي مذهب الوسطيَّة، وقد ذهب المفسرون الطبري والقرطبي وابن كثير وأبو حيان والبقاعي..... وغيرهم إلي أن الآية جاءت بتأييد هذا المذهب كما رأي ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وابن الأثير، ومن علماء الإخلاق والفلسفة أرسطو والغزالي وابن مسكويه وغيرهم كثير.

---

(١) رواه أبي داود عن علي بن أبي طالب مرفوعاً وفي إسناده ضعف ففيه عمرو بن هاشم أبو مالك الجنبي وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٨٧).

منهج الصحابة في قضية الكرم والإنفاق

عرض د. أحمد الحوفي (١) شبهة وهي تناقض نظرية الوسطيَّة تماماً . حسب ظنه بالطبع . تحت عنوان "مع الرسول وصحابته " بقول الحوفي:. " ولنرجع إلى مشرق الإسلام لتطالعنا أعمال الرسول ﷺ وأعمال صحابته بما ينقض نظرية الوسطيَّة في كل فضيلة من الفضائل ولنتخذ الكرم نموذجاً للتطبيق لقد كانوا أسخياء بأموالهم في حماية الدعوة، وفي مؤازرة الرسول ﷺ وفي محاربة الذين يصدون عن سبيل الله، وفي الإنفاق على الفقراء من المسلمين الذين فقدوا أموالهم في سبيل الله، أو عجزوا عن الكسب، وفي رعاية اليتامي والأيامي، وفي تحرير الأرقاء وما شاكل هذا من جليل ونبيل.

وكان النبي ﷺ وبعض صحابته يعطون وهم في حاجة إلي ما يعطوه، ويبذلون الكثير وهم في حاجة إلى القليل، وهذه هي الدرجة العُليا من الكرم التي إمتدحها الله في قوله " وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (الحشر /٩).

فمثلاً حملت إلى النبي تسعون ألف درهم، فوضعها على حصير، ثم قام إليها فقسمها، فما رد سائلاً حتي فرغ منها، وأتي بمال من البحرين فقال: إنثروه في المسجد، وكان أكثر مال أتي به، فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما رأي أحداً إلا أعطاه، وما قام وثم منها درهم. "

(١) الوعي الإسلامي (ص٤٤-٤٥) مرجع سابق.

الجواب على ما تقدم

ونقول للحوفي: هل تنتظر من رسول الله ﷺ أن يبقي من أموال الصدقة والزكاة شيء مثلاً، ولا يوزعها على مصارفها الشرعيَّة المعروفة، وهل يصلح ذلك لإثبات صحة رأيك بنفي منهج الوسطيَّة، ولنفرض أن المال هو مال الرسول ﷺ، فهل نسيت قوله ﷺ:" إننا معشر الأنبياء لا نورث " فلا يقاس على هذه الحادثة أصلاً في نفي أو إثبات نظرية الوسطيَّة. ويقول الحوفي:. " وكان من الصحابة من يتصدق بثلث ماله، ومنهم من يجود بنصف ماله، ومنهم من يسخو بماله كله، وقال عمر بن الخطاب: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، ووافق ذلك مالاً عندي، فقلت اليوم أسبق أبا بكر، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله: " ماذا أبقيت لأهلك؟" فقال: مثله، وجاء أبو بكر بكل ما عنده، فقال رسول الله:" ما أبقيت لأهلك؟" فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسبقه أبداً

كذلك كان عثمان بن عفان، فقد إشترى وحده بئراً من يهودي بالمدينة بعشرين ألف درهم، وجعلها ملكاً للمسلمين، وإشترى وحده موضع خمس سوار " أي أعمدة " زاد بها مساحة مسجد المدينة، وهو الذي مد الجيش الإسلامي في غزوة تبوك بتسعمائة بعير وخمسين فرساً وألف دينار.

فها هنا سخاء كثير، لكنَّه ليس من الإسراف في شيء، لأن البذل في الطاعات لا يوصف بإسراف، فقد سمع رجلاً يقول: لا خير في إسراف، فقال له: لا إسراف في خير " ا.هـ.

والجواب على ذلك

أنَّ أصحاب النبي ﷺ طابت أنفسهم بذلك لأنهم كما قال رسول الله ﷺ فيهم " خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم " (١)

فمن طاق على فعلهم، ولم يؤدي به ذلك إلى الشكوى والندم وفعل ذلك فلا بأس به مطلقاً، والأخذ بمبدأ الوسطيَّة هو الأصل لأنَّ الناس جميعاً لا يطيقون أن يخرجوا أموالهم كلها في سبيل الله ويتركون أولادهم فقراء بلا مال فهذا يؤدي بهم إلي الحرج والشريعة جاءت بنفي الحرج، وإن فعل ذلك بعضهم تأسياً بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وخرج عن مبدأ الوسطيَّة لا يعني ذلك أنَّ هذا المبدأ خطأ أو قصور بل إن أصحاب النبي ﷺ تتفاوت هذه الأمور فيما بينهم فمثلاً عمر بن الخطاب ﷺ ترك نصف ماله لأولاده " وهذا يقره الإسلام لأنَّه جاء على مبدأ الوسطيَّة " وأبو بكر " لأنَّ إيمانه يوزن بإيمان أمة مُحَمَّد جمعاء" ترك لأولاده الله عز وجل " تمام اليقين والتوكل " وتبرع بماله كله لله فهل إيمان كل واحد منا مثل إيمان أبي بكر؟.

بالطبع لا، ولا يستدل بفعله هذا على خطأ منهج الوسطيَّة، وإن بدر منهم الخروج على هذا المبدأ لأنَّ ذلك وافق أموراً معينة عندهم وإيمانهم أكمل وأتم من إيمان من هو دونهم من هذه الأمة، وسوف يأتي الرد إن شاء الله على هذه الشبهه بالتفصيل.

ثمَّ إن هذه الامة ثلاثة أصناف قال تعالى:" ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ " (فاطر /٣٢).

---

(١) أخرجه البخاري عن ابن مسعود (٢٦٥٢)،(٣٦٥١)،(٦٤٢٩)،(٦٦٥٨) ﷺ.وسوف نرد على هذه الشبهة مرة أخري بطريقة أوضح كما سيأتي.

الصنف الأول:. ظالم لنفسه، وهو الذي يطيع الله تعالى ولكنَّه يقصر في العمل بالكتاب وفي فعل بعض الواجبات ويسرف على نفسه بإرتكاب بعض المحرمات وإن كان قائماً بما أوجب الله، وتربو سيئاته في العمل على حسناته

الصنف الثاني:. مقتصد في فعل الخيرات، وهو الذي يطيع الله تعالى ولا يعصيه، فيؤدي الواجبات ويترك المحرمات، ولكنَّه لا يتقرب إلى الله تعالى بالنوافل من الطاعات، ويترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات.

الصنف الثالث:. سابق بالخيرات بإذن الله، وهو الذي كثر عمله بكتاب الله، وزادت حسناته على سيئاته.